

٢ - من قضايا السحرة

صفحة من الجرائم المروعة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان لظهور هذه الحقائق المروعة عن جرائم السحرة وقع عميق في باريس وفي فرنسا بأسرها؛ ولم يكن القضاء المادي ليكفي لـحق هذه الطغمة الآتمة وتطهير المجتمع من عيبتها الذريع، فأمر لويس الرابع عشر ووزرائه أن يبعد بمقابها إلى القضاء الاستثنائي، وانتدبت لذلك محكمة خاصة هي «الغرفة الساطمة»^(١) لشهيرة في تاريخ ذلك العصر، وسميت كذلك لأن المحاكم الخاصة التي تنتدب للنظر في الجرائم الكبرى كانت تجلس في غرفة نجل جدرانها بالسواد وتناد بالشاعل والصايح

وعقدت «الغرفة الساطمة» جلستها الأولى في العاشر من أبريل سنة ١٦٧٩، وقررت أن تكون إجراءاتها وتحقيقاتها سرية حتى لا يقف الجمهور على شيء من الأعمال السحرية أو أسرار السحرة؛ وتولى الراسة المستشار لوى بوشرا كونت دي كومبان يماونه عدة من أعضاء مجلس الدولة؛ وتولى لاريني مهمة القاضي المحقق؛ وكانت إجراءاتها تلتخص في أن كل من

La Chambre ardente (١)

اطمان بي المجلس قال : حافظ : مارأيك في شعر اليازجي ؟ فأجبت : قال : فالبستاني ، فنجيب الحداد ، ففلان ، ففلان ؛ فداود بك عمون ؟ قلت : هذا لم أقرأ له إلا قليلاً لا يسوغُ معه الحكم على شعره . قال : فإذا قرأت له ؟ قلت : رده على قصيدتك إليه : شجنتنا مطالع أقارمها . قال فما رأيك في قصيدته هذه ؟ قلت : هي من الشعر الوسط الذي لا يعلو ولا ينزل فما راعني إلا رجل في المجلس يقول : أنصفتَ والله ! فقال حافظ : أقدم لك داود بك عمون رحم الله تلك الأيام ما

للأستاذ محمد عبد الله عنان

(ططا)

تقع عليه شبهة الاتهام يقبض عليه بأمر الملك أعني بواسطة «التر دي كاشيه» (أو رقعة السجن)، وتقدم نتيجة التحقيق الأول إلى النائب العام، وله وحده أن يقرر المواجهة بين الشركاء، وعند انتهاء التحقيق يرفع به تقرير يضاف إلى «الغرفة الساطمة»؛ وهي تقرر ما إذا كان يجب الاستمرار في اعتقال المتهم، فإذا قررت ذلك، استمر التحقيق معه؛ وعند نهايته، ترفع أوراق الاتهام إلى المحكمة، فيقرؤها انقضاء، ويقدم نائب الملك (النائب العمومي) طلباته سواء بتبرئة المتهم أو بالحكم عليه؛ ثم تسمع أقوال المتهم فوق منصة المحكمة، وببدها تصدر المحكمة حكمها غير قابل للاستئناف

وكانت «الغرفة الساطمة» تمقد في قصر «الأرسينال»؛ واستمر انعقادها باستمرار حتى يولييه سنة ١٦٨٢ عدا فترة أشهر وقفت فيها جلساتها؛ وبلغ عدد المتهمين الذين قدموا إليها ٤٤٢ متهماً، تقرر استمرار اعتقال ١١٨ منهم؛ وحكم بالإعدام على ستة وثلاثين، وتقرر تذيبهم بالتحقيق المادي وبالتحقيق الاستثنائي، ثم أعدموا حرقاً كما سيجيء؛ ومات اثنان في السجن؛ وحكم على خمسة بالاشغال الشاقة، وبالنفي على ثلاثة وعشرين؛ وأطلق سراح الباقين لأنهم أبرياء، ولكن لأن لهم شركاء في التهم المسندة إليهم من كبار الدولة والسادة وأرفع سيدات البلاط

يقول فولتير في كتابه «عصر لويس الرابع عشر» في حديثه عن قضية السحرة، إن أعظم رؤوس في المملكة استدعوا لإجاء أقوالهم أمام «الغرفة الساطمة» ومنهم ابنتنا أخت الكوردينال مازاران؛ والدة دي برون، والكونتيسة دي سواسون والدة البرنس أوجين، والمارشال دي لوكسمبورج؛ وقد كان لهؤلاء جميعاً ولغيرهم من كبار الملكة علائق ومعاملات مع السحرة

وقد كشف التحقيق عن واقعة أشنع وأفظع هي أن حياة الملك ذاتها كانت موضعاً لاثبات السحرة، وأن التحريض على اغتيالها لم يجرى إلا من أعماق القصر، ومن أقرب المقرين لشخص الملك ذاته

كانت مدام دي مونتسبان حظية لويس الرابع عشر الشهيرة،

لاقوازان لدى وصيف بالقصر من مماردهما ليسهل لها مهمة تقديم المريضة بنفسها

وارتاع الجناة لجرأة لاقوازان ، وتنبأوا لها بالوقوع بين برائن القضاء متهمة بجرعة دولة ؛ ولم يكن الموت شر ما يخشاه السحرة في تلك المصور ، بل كان التعذيب أشد ما يروعهن ، بيد أن لاقوازان كانت تحبها وتقربها مائة ألف جعلتها مدام دي مونتسبان نمنا للجرعة (نحو مليون فرنك من النقد المعاصر) ، فقصدت إلى سان جرمان في يوم ٥ مارس سنة ١٦٧٩ ، ثم في التاسع منه ، محاولة أن تصل إلى الملك فتقدم إليه المريضة السمومة ، ولكنها لم تفز بينيتها ، فعادت مكتئبة إلى باريس ، ولكن مصممة على أن تمرد في أول فرصة . بيد أن عين لاريني كانت ساهرة ترقب أعمال السحرة ؛ وفي الثاني عشر من مارس قبض عليها وعلى ابنتها مرجريت ، وعلى عدة من شركائها حسب أسلفنا .

ولما ذاع نبا القبض على لاقوازان وشركائها ، ارتفعت مدام دي مونتسبان ، وغادرت البلاط في الحال إلى الريف ، فحكمت هنالك مدى حين

أنفقت المحكمة الخاصة أو « الفرقة الساطمة » أشهراً طويلة في تحقيقات واجراءات يتسع نطاقها يوماً عن يوم ، وكان التحقيق يمتد شيئاً فشيئاً إلى طائفة من الرؤوس الكبيرة ، حتى أن المحقق لاريني اضطر أن يطلب حرساً خاصاً لرافقته في زيارته لسجن فنسان حيث اعتقل التهمون ، وكثير الهمس والوعيد حول قضاة الفرقة الساطمة ، واهتم الملك ووزراؤه بالأمر ، وكتب لوقوا رئيس الوزارة إلى رئيس المحكمة يقول له : إنه لمناسبة ما نرى إلى جلالته من الحديث حول « الفرقة » واجراءاتها ، فإن جلالته قد أمر بقبليغ القضاة أنه يؤكد لهم حمايته ، وأنه يطلب اليهم أن يستمروا في اقامة العدالة بثبات . ثم زاد الملك على ذلك فاستدعى اليه قضاة المحكمة ليطعشهم ويشجعهم ؛ ويقول لنا لاريني تعليقاً على تلك المقابلة ، إن جلالته قد أوصاه بتحقيق العدالة والواجب ، وإنه يرجو تحقيقاً لخبر المجموع أن تنفذ جهده الاستطاعة إلى أسرار جرائم السموم ، وأن نجث جذورها إذا

قد وصلت في ذلك العصر إلى ذروة القوة والتفوذ ، وتبوات في البلاط أرفع مكانة ، وبسطت سلطانها على الملك التيم مدى أعوام طويلة ؛ ولكن حل عهد السأم والهجران أخيراً ، ومال الملك عن حظيته القديمة إلى حظية جديدة هي فتاة من وصيفات الشرف تدعى الآنسة دي فوتناج ، فلما شعرت مدام مونتسبان بأفول نجمها اضطرت سخطاً وبأساً ، وفكرت في أن تنتقم من الملك وحظيته الجديدة معاً ، واتصلت بالساحرة لاقوازان وزميلة لها تدعى لاريانون ، فتمهدتا بتدبير مشروع لاغتيال الملك ؛ وتمهد الساحران السمان روماني وبرتران بقتل الآنسة دي فوتناج ، وبذلت مدام دي مونتسبان للسحرة مالا وفيراً

وكانت مدام دي مونتسبان إبان نفوذها وسلطانها وثيقة الصلات بلاقوازان وشركائها ؛ وكانت تلجأ إلى السحرة التماساً لتوطيد نفوذها بفعل السحر والتحام ؛ وكانت هذه الحساء المتكبرة تنزل عند دجل السحرة ، وتقبل الاشتراك في إجراءات السحر الأسود ، فترقد عارية أمام أولئك الطنم ، وتقوم لاقوازان وزملاؤها باجراء القران الدموي والسحر الأسود ، وتمتد الحظية الهائعة أنها بذلك تذكي نار حبا في نفس الملك وتوطد دعام نفوذها وسلطانها

ويتلخص مشروع اغتيال الملك كما دونه لاريني من أقوال لاقوازان وشركائها في أن الجناة فكروا أولاً في أن يزهدوا الملك بالسم ، وذلك بأن ينثروه على ثيابه أو حينما اعتاد أن يمر ، فيستنشقه تباعاً ويموت يبطه ، وتمهدت الآنسة ديزيه وصيفة مدام دي مونتسبان بتأدية هذه المهمة . ولكن لاقوازان رأت بعد التفكير أن تلجأ إلى وسيلة أخرى . وذلك أن لويس الرابع عشر اعتاد طبقاً لمادة قديمة أن يتاق بنفسه في أيام معينة المرائض التي يرفعها اليه رعاياه بالنظم والالتماس ، ويسمع لكل بالدخول عليه عندئذ دون فارق أو تمييز ، ففكرت لاقوازان أن تعد عريضة من هذا النوع تضمخها بنوع من السم الزعاف ، فإذا تناولها الملك بين يديه سرى اليه السم وهلك ؛ وتمهدت الساحرة لاريانون باعداد هذه المريضة ، وتمهدت لاقوازان بتقديمها إلى الملك . ورؤى أن يكون موضوعها طلب الفوثن لشخص يشتغل بالسميا ويدعى بلميس ويمتقله المركيز دي ترم في قصره ، وسمت

حكمت بالاعدام والتعذيب على ستة وثلاثين متهمًا ثبتت إدانتهم في مزاولة التسميم والأعمال السحرية الاجرامية ، وذلك من مجموع قدره مائة وثمانية عشر متهمًا . ونفذ الاعدام في المحكوم عليهم تباعاً ؛ وكان إعدام السحرة يجرى بطريق الحرق دائماً . وكانت لافوازان ولافيجوريه ولبساج في مقدمة المحكوم عليهم بهذا الموت المروع . وقد احرقوا معاً في « ميدان جريف » . ونصف لنا مدام دي سفينيه الكاتبة الشهيرة منظر لإحراق الساحرة لافوازان - وقد شهدته بنفسها - وتقول لنا « لقد أسلت لافوازان روحها للشيطان في لطف » . وينقل إلينا الكاهن الذي تولى مرافقة الساحرة إلى المحرقة كلماتها الأخيرة وهي : « لاني مثقلة بأ كداس من الجرائم ، ولست أدعو الله أن يتقذني من النار بمجززة ، لأن ما سألقاه من الجزاء لا يقاس بشيء . مما ارتكبت »

ويقدم إلينا قولتير في كتابه « عصر لويس الرابع عشر » خلاصة لهذه الحوادث والمحاكمات المثيرة ثم يعاق عليها بقوله : « نستطيع أن نتصور أية إشاعات مروعة أذيت خارج باريس . بيد أن حكم الاعدام الذي قضى به على لافوازان وشركائها قد وضع في الحال حداً لهذه الأعمال وهذه الجرائم ؛ وقد كانت هذه الحرفة المروعة محصورة في شريحة من الناس ، ولم تلوث أخلاق الأمة كلها ؛ بيد أنها طبعت أذهان الناس بميل سقيم إلى اعتبار الوفيات الطبيعية ، نتيجة الجريمة »

والواقع أن هذا التبت من الآثام والجرائم المروعة يلقى ضياءً كبيراً على روح هذا العصر وخلال - ويؤيد حقيقة تاريخية خالدة ، هي أن عصور العظمة القومية ، تتكشف في الغالب عن صنوف من الانحطاط المعنوي والاجتماعي تتناسب مع ما تبثه نهاء العصر ورفه من ألوان الفساد الروحي والأخلاق ، ومع ما يذكيه العصر من الشهوات الانسانية الوضيعة . وقد كان عصر لويس الرابع عشر بلا ريب على ما بلغه من العظمة والبهاء يعانى فعل هذه العناصر الهدامة التي انهدرت بالاجتماع الفرنسي غير بعيد إلى درك من التفكك والانحطاط ، كان نذر الثورة الفرنسية الكبرى (١)

محمد عبد الله عثمان

تم البعث

(١) اعتمدنا في هذا البحث على كتاب العلامة فونك برتاناو Le drame des poisons وكتاب فواير XIV Siecle de Louis

استطعنا ، وذلك دون تفريق بين الأشخاص والقامات بيد أنه قد طلب إلى القضاة من جهة أخرى أن يلزموا التحفظ في بعض الأمور ، وظهر أثر هذا التحفظ في الحرص على عدم حالة لافوازان إلى التعذيب ، وذلك خوفاً من أن ينطلق لسائها حين التعذيب بما لا يريدها أن يذاع وأن يمرف ؛ ومع ذلك فقد صرحت لافوازان في ساعتها الأخيرة عقب الحكم عليها بالاعدام « أنها مضطرة لأن تقول اراحة لضميرها إن عدداً كبيراً من الناس من جميع الطوائف والطبقات قد جلبوا إليها سميماً إلى ازهاق الكثيرين ، وإن الباعث الأول لهذه الجرائم إنما هو الفجور » ولما وقف لويس الرابع عشر على أقوال مرجريت مونثوازان ابنة لافوازان عقب اعدام أمها ، كتب إلى لاريني يطلب إليه أن يدون اعترافاتها وما يترتب على هذه الاعترافات من مواجهات ومناقشات في ملف خاص ، وكذلك أقوال الساحرين روماني وبرتران ، وهما من شركاء لافوازان . وقد كانت أقوال مرجريت مونثوازان ذات أهمية خاصة لأنها تملق بمشروع تسميم الملك ، ومن جهة أخرى فقد وعد لوفوا الساحر لبساج بأن يتقذ حياته إذا قال كل شيء ، ولكنه لما ذهب في اعترافاته إلى حدود مروعة ، رمى بالكذب ولم يقبل للحق أن يصفى إليه بعد ؛ وأدلت متهمه أخرى تدعى فرانسواز فيلاستر بمعلومات مثيرة مدهشة ، فأمر الملك بأن تودع أقوالها في ملف خاص ، وأن ترفع إلى مجلسه ؛ وهكذا بلغ من اهتمام لويس الرابع عشر بهذه القضية أن لبث يتتبع كل أدوارها ، وأن يسحب من أوراق التحقيق كل ما لا يرغب في اذاعته ؛ والواقع أن لويس الرابع عشر نأثر أيضاً نأثر لما كشفت عنه التحقيقات من الوقائع والحقائق المؤلة التي تصيبه في أعز عواطفه وفي كرامته الموكية . ألم تلجأ حظيته التي كان يبذلها إلى السحرة ، وتلوث نفسها وجسمها في معاهدم سميماً إلى ازهاقه ؟ أليست مدام دي موتسميان أم أولاده المحبوبين ؟ ومع ذلك فقد كظم الملك العظيم ألمه ونأثره ؛ ولبثت هذه الوثائق الهائلة التي تكشف عن عاره في خزائنه السرية أعواماً طويلة حتى أمر باحراقها جمد ذلك في مدنته في يوم من أيام سنة ١٧٠٩ ، أعنى بعد هذه الحوادث بثلاثين عاماً

كانت « الفرقة الساطعة » حاسمة صارمة في أحكامها ، فقد